المَذْهَبُ النّحْوِيّ فِي بَغْدَادَ اتِّجَاهُهُ وَمَنْهَجُهُ فِي دِرَاسَةِ النّحْوِ

The grammatical doctrine in Baghdad, its direction and method for studying grammar

د. سليم عوا ريب‡

تاريخ الاستلام: 2020.08.27 تاريخ القبــول: 2021.06.10

الملخّص: تتغيّا ورقتُنا البحثيّة الاستدلالَ على التّصوّراتِ والافتراضاتِ التي سادتْ في القرنِ العشرين، مُفادها أنّ هناكَ مدارسَ نَحويّة قائمةً برأسها تُضاهِي مَدْرَسَتَي البصرة والكوفة، كالمدرسةِ البغداديّة، لذا تَهدُفُ هذه الدّراسةُ إلى إبرازِ حقيقةِ المذهبِ البغداديّ النّحويّ، من خلال الكشفِ عن اتّجاهاتِ النّحاةِ الذينَ نُسِبُوا إليه، ومَنْهَجِهِم في دراسةِ النّحوِ، كمَا تكرّسُ الدّراسَةُ اعتقَاداً جُملتُهُ أنَّ النّحوَ في بغدادَ هُو مذهبٌ للنحاةِ فقط، لا يرقَى إلى المدرسيّة المُعْلَنَة، الأمرُ الذي جعل العلماءَ فيما نعْتَقِدُ ينعتونَهُ بُالدّرسِ البغداديّ أو المذهبِ البغداديّ. من هنا توصّلنا بَعدَ الاستدلالِ والبرهنةِ إلى نتائجَ تَتَوخّى تحديدَ المرادِ بالمذهبِ البغداديّ النّحويّ، منها أنَّ مدرسةَ بغدادَ المزعومةَ لا تعدّو أنْ تكونَ حركةً علميّة نشَّطَهَا علماءُ الكوفةِ، وأنَّ مَا جَرّ العلماءَ إلى هذَا الاعتقَادِ هُوَ تصنيفُ أصحابِ الطّبقاتِ والسّيرِ للنحويينَ واللغويينَ، كمَا تتحدّدُ مذهبيّة بغدادَ بظهورِ جيلٍ منَ النّحاةِ تَتَلمَذُوا علَى يَدَي المبردِ وثعلبٍ، واختارُوا واصْطَفَوا منَ المدرستينِ دونَ هَوادَةٍ، لذَا فهوُ مذهبٌ بهذَا الاعتبارِ ذهبَ إليهِ علماءُ بغدادَ، ولا يمثّلُ مدرسةً ذاتَ أصولٍ ومنهَجٍ مُستقِلَينِ.

‡جامعة عبد الحفيظ بوالصّوف ميلة، الجزائر، البريد الإلكتروني: salim302014@gmail.com (المؤلّف المرسل).

الكلمات المفتاحيّة: المذهب، بغداد، الاتجاه، المنهج، النّحو.

Abstract: Our research paper seeks to infer the perceptions and assumptions that prevailed in the 20 twentieth century.There are self contained grammatical schools comparable to the schools of Basra and Kufa.Such as The Baghdad school. So this study aims to highlight the reality of the grammatical schools of baghda,by revealing the attitudes of grammarians who were attributed to it, and their approach in the study of grammar.The study also enshrines a belief that grammar in baghdad is probably a doctorine of grammarians only.This might lead schoolars to call it Albaghdadi lesson or Albaghdadi school. From here we reached after reasoning and proof, the.

The results that aim to define what is meant by the grammatical doctorine of Baghdad. that the alleged school of Baghdad is nothing more than a scientific movement activated by the schoolars of kufa and that what led the schoolars to this belief is the classification of owners of classes and the functioning of the grammarians and linguists. In addition, The doctorine of Baghdad is determined by appearance of a generation of grammarians who were taught by El mobared and taalab. and they choose and lined up from the two schools unabated.So, it is a doctorine in this regard that schoolars of Baghdad went to .and it dos not represent a school with independent origines and curriculum.

Key words: doctrine, Baghdad, direction, approach, grammar.

1. المقدّمة: لقد دأب جمع من العلماء والدّارسين على إطلاق اسم المدرسة البغداديّة أو المذهب البغدادي أو البغداديين، وأحياناً الدّرس البغدادي على تصور اختزن في أذهانهم، مُفاده أنّ في بغداد مدرسة نحويّة هي امتداد لمدرستي البصرة والكوفة في النّحو، يقتصر عملها على الانتخاب من آراء المدرستين بعد الاطّلاع على نحوهما وفقههما، واستكناه نظرياتهما، على أنّ الذين أسسوا لهذا المذهب وأرسوا أصوله هم ممن تتلمذوا على يد العباسين أبي العباس ثعلب الكوفي وأبي العباس المبرد البصري، كابن قتيبة وابن كيسان[1].

وكان ذلك بعد أن هيمن المذهب الكوفي في بغداد مدّة على المذهب البصري قبل اجتماع المبرد وثعلب، وظلت المنافسة قائمة بينهما زمنئذٍ حتى نشأ الجيل الذي تتلمذ عليهما بمذهب جديد، «يستمد أصوله وصوره من المذهبين السّابقين»[2].

وانطلاقا من هذا القول تنقدح أمامنا تساؤلات عدّة، منها هل توجد لبغداد مدرسة نحويّة أم أنّها مجرد مذهب اتبعه النّحاة؟، علام اعتمد العلماء في إثبات مدرسة بغداد أو رفضها؟ من هم النّحاة الذين نسبوا إلى هذا المذهب، وما هو اتجاههم النّحوي بالتّحديد؟ ما هو منهج هذا المذهب في دراسة النّحو؟.

من هنا يعتقد العلماء المحدثون أنّ وجود مدرسة نحويّة في بغداد يعود إلى تصنيف أصحاب الطّبقات للنحاة واللغويين في مذاهب نحويّة نحو تصنيف ابن النّديم في الفهرست، حيث جعل النّحاة واللغويين ثلاثة مذاهب، بصريين وكوفيين ومن خلطوا المذهبين السّابقين، وذكر من المذهب الثّالثّ ابن قتيبة، وأبا حنيفة الدّينوري، وأبا موسى الحامض، وأبا القاسم الزّجاجي، وأبا الحسن ابن كيسان، وأبا عبد الله نفطويه، وأبا الحسن علي بن سليمان الأخفش الصّغير[3]، وهذا ما استند إليه أحمد أمين حينما جعل النّقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سبباً في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما»[4]، وقد ذكر منه نَحْوِيَيْنِ هما ابن قتيبة وأبو حنيفة الدّينوري[5].

إنّ المذهب البغدادي اعتقاد وتصور ساد بعد تصنيف جماعة ثالثّة نشطت في بغداد، وهو ما أشار إليه ابن النّديم، ما جعل بعضهم ينص على وجود مدرسة نحويّة ثالثّة في بغداد، على أنّ هناك من أعرض عن عدّها مدرسة مستقلة، كالتي كانت في البصرة، وفي الكوفة على الأقل.

تهدُفُ هذه الدّراسة إلى إبراز حقيقة المذهب البغدادي النّحوي من خلال الكشف عن اتجاهات النّحاة الذين نُسِبُوا إليه، ومنهجهم في دراسة النّحو، كما تكرّس الدّراسة اعتقاداً جملته أنّ النّحو في بغداد هو مذهب للنحاة فقط لا يرقى إلى المدرسيّة المعلنة.

وللوصول إلى هذه الأهداف سعينا إلى إتباع منهجيّة تقوم على إبراز الاتجاهات الرّافضة لهذه المدرسة، وحججهم في مقابل الاتجاهات المؤيدة لها كما حاولنا إثبات اتجاه النّحاة النّحوي إلى إحدى المدرستين البصريّة والكوفيّة ممن جعلهم بعض العلماء من المدرسة البغداديّة، دون إغفال جماعة ثالثّة تنتخب من آراء المدرستين، ثم بيّنا المنهج النّحوي الذي يقوم عليه هذا المذهب الانتخابي، متبعين في ذلك المنهج الوصفي التّحليلي المناسب للبرهنة على الفرضيات المطروحة.

2-المدرسة البغداديّة[6] بين الرّفض والتّأييد: اختلف المؤلّفون والدّارسون المحدثون في قيام مدرسة بغداد، فمنهم من أثبتها ومنهم من نفى وجودها، واكتفوا بعدّها تجمعاً للنحاة لا يرقى إلى المدرسيّة، وقد اختلف الذين أثبتوها في ثلاثة أمور:

-مفهوم اصطلاح البغداديين ومفهوم هذه المدرسة؛

-زمن هذه المدرسة ومراحلها؛

-نحاة هذه المدرسة واتجاهاتهم.

2-1-الاتجاه الأوّل: ويمثله مَنْ أثبت وجودها، وفي صدارتهم محمّد الطّنطاوي الذي صرّح في كتابه أنّ المذهب البغدادي هو نتيجة لتلاقي مذهبي البصرة والكوفة في بغداد، والخلط بينهما لاستخلاص مذهب جديد، هو المذهب البغدادي القائم على الانتخاب والاختيار من المذهبين البصري والكوفي، ويوغل الشّيخ الطّنطاوي في زعمه بوجود هذه المدرسة حينما أقرّ بأنّ هذا المذهب هو بداية عهد جديد في النّحو في القرن الرّابع للهجرة[7].

ولقد ذكر من نحاته ابن قتيبة، وابن كيسان، والأخفش الصّغير، ونفطويه[8].

ومن الذين أثبتوا هذه المدرسة شوقي ضيف الذي يرى «أنّ مدرستي البصرة والكوفة المتنافستين في بغداد قد تقاربتا واندمجتا في نهاية القرن الثّالثّ الهجري في مدرسة بغداد»، التي يكمن مذهبها في انتخاب مزايا المدرستين البصريّة والكوفيّة، ويعترف ضيف بهذه المدرسة، ويجعلها مدرسة جديدة في بغداد تدرجت في مراحل متعاقبة حتّى وصلت إلى غايتها[9].

وأمّا مهدي المخزومي فلم يستقر رأيه على حال واحد في تصوّر وجود هذه المدرسة من عدمه، فمرةً يسميه مذهباً ومرةً يسميه درساً لا يرقى حتى إلى المذهبيّة، ففي كتابه مدرسة الكوفة أقرّ بوجود مذهب نحوي انتخابي في بغداد فيه الخصائص المنهجيّة للمدرستين البصريّة والكوفيّة[10].

أمّا في كتابه الدّرس النّحوي في بغداد فقد أعرض على أن يسميها مدرسة أو مذهبا يقول في ذلك: «ولم أجعل عنوان هذا الكتاب: مدرسة بغداد أو مذهب بغداد في النّحو لأنّ مدرسة الكوفة أدقّ في الدّلالة على ما يراد بمدرسة بغداد»[11]؛ لأنّ هذه المدرسة – في رأيه–أخذت منحيين أو اتجاهين، الأوّل بصري والثّاني كوفي، «سارا في خطين متوازيين إلى أنّ تغلب الاتجاه البصري في بغداد»[12].

إذًا فموقف المخزومي هو أنّ النّحو في بغداد لا يرقى إلى أن يكون مدرسة قائمة برأسها، وما هي إلاّ مذهباً انتخابياً جمع بين منهجي البصرة والكوفة، كما فعل بعض النّحاة المتأخرين في جمعهم بين المذهبين، وانتهاجهم المنهج الوسط كما فعل ابن مالك الأندلسي[13].

وممّن اعترفوا بوجود مدرسة بغداد أحمد مكي الأنصاري، الذي جعل الفراء زعيمها الأوّل، وجعلها سعيد الأفغاني مذهباً جديداً نتج عن الاحتكاك والتّمازج النّحوي بين البصريين والكوفيين، بل بين العلماء من شتى الأمصار[14]، وهكذا فعل أحمد أمين وكارل بروكلمان، وعبد الرّحمن السّيد، ومازن المبارك، وأحمد مختار عمر وغيرهم[15] غير أنّ مازن المبارك قد نفى وجودها في موضع آخر[16].

نخلص إلى أنّ هذا الاتجاه إنّما الذي حمله على إقرار مدرسة بغداد هو ما نص عليه أصحاب الطّبقات، أولئك الذين صنّفوا النّحاة في مجموعات سموها بالمدارس النّحويّة، وافترضوا وجود جيل ثالثّ في بغداد، وصفوهم بالذين خلطوا المذهبين حينما وجدوهم يأخذون برأي البصريين والكوفيين معًا، وربما استنتجوا رأيًا ثالثًاً من المذهبين.

2-2-الاتجاه الثّاني: ويمثلهم من المستشرقين فايل محقّق كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري، الذي نفى أن تكون مدرسة الكوفة مدرسة نحويّة قائمة بذاتها، وهذا يعني نفي كلّ مدرسة أخرى بعدها، وقد عارض عبد الفتاح شلبي الآراء التي أثبتت وجودها، وجعلها مناقضة لأراء أصحاب الطّبقات، بيد أنّه أثبت وجودها في مواضع أُخَر[17].

وقد دحض فاضل صالح السّامرائي عالم النّحو والبيان في العصر الحديث حجج من أثبتوا وجود مدرسة بغداد، وأبطل إطلاق مصطلح مدرسة أو مذهب على النّحو في بغداد، وأنّها راجعة إلى أن تكون مذهباً بصرياً أو كوفياً[18].

ويبدو أنّ الرّأي الأخير – فيما أحسب–هو الرّأي الأقرب إلى الصّواب؛ لأنّ السّامرائي قد وضع أسساً ومقاييس تخضع لها المدرسة وهي أن تكون:

–ذات أسس تتبعها في أصول البحث؛

–أن تكون لها مصطلحاتها الخاصّة بها.

–أن تكون لها مسائل خلافيّة، ثم النّظر إلى النّحوي ذاته وأين يعدُّ نفسه أمن البصريين أم من غيرهم؟

وعليه لا يعدُّ السّامرائي مدرسة بغداد مدرسة «إلاّ إذا أثبت أنّها مدرسة مستقلة ذات أسس مستقلة وكيان خاص وآراء مستقلة، وأن نحاتها يتصفون بهذه الصّفات أيضاً»[19]، وقد رفض أيضاً –والحال هذه–أن يكون كلّ من نشأ بعد المبرد وثعلب من المدرسة البغداديّة[20].

صحيح أنّه قد نشأ جيل تتلمذ على يد المبرد وثعلب بعد ترأسهما لحلقة العلم في بغداد، حينما أصبحت حاضرة العلم والعلماء، أخذوا عن البصريين والكوفيين، غير أنّهم لم يشكلوا مدرسة جديدة قائمة برأسها، سوى تأسيس فكرة تقوم على عدم الحرج في الأخذ

عن البصريين أم الكوفيين، بوصفهما مدرستين نحوهما واحد، ولكن اختلفتا قليلاً في المنهج وفي التّطبيق واتفقتا في الأصول.

وعليه يمكن أن نأخذ برأي مهدي المخزومي في عدّ نحو بغداد مذهباً جديداً في النّحو، وليس مدرسةً كالبصرة والكوفة عند الأغلب، وبرأي فاضل السّامرائي حينما تصور أنّها راجعة إمّا إلى البصرة وإمّا إلى الكوفة.

3-أشهر نحاة المذهب البغدادي واتجاههم النّحوي: لقد سبق البيان إلى أنّ البداية الفعليّة للنشاط النّحوي بدأ مع المبرد وثعلب، اللذين قَدِمَا إلى بغداد من البصرة والكوفة ونشأ إذّاك جيل من النّحاة أخذ عن هذين العالمين، ونشأت بينهم صراعات فكريّة أفضت إلى بروز نزعتين نحويتين متباينتين، واتجاهين مختلفين، اتجاه ينزع إلى المذهب البصري واتجاه ثان ينزع إلى المذهب الكوفي، وربّما تكوّن اتجاه ثالثٌ يأخذ عن المذهبين، أو ينفرد بآراء خاصّة، لذا يمكن أن نلمّح ثلاثة اتجاهات مختلفة صنّفها العلماء وهي:

الاتجاه الأوّل: ويضمّ نحاةً بقوا أوفياء إلى المذهب البصري، سواءٌ أكانوا بصريين أم غير ذلك، وسواء أأخذوا عن بصريين أم كوفيين، نهجوا نهج البصرة في اعتمادهم على السّماع، واعتدادهم بالقياس وجعله أصلا من أصول النّحو، ورفضهم الاعتماد على الحديث النّبوي الشّريف شاهدا نحويًا[21]؛

الاتجاه الثّاني: وهم من ظلوا كوفيين، سواء أأخذوا عن أشياخ المدرستين أم عن الكوفيين فقط، وهم من نهجوا نهج علماء الكوفة الأوائل كاعتمادهم على القبائل التي لم يأخذ عنها البصريون، وتوسعهم في الرّواية والقياس ووضع أقيسة جديدة والابتعاد عن التّأويل والتّقدير[22]؛

الاتجاه الثّالث: وهم من خلطوا المذهبين ممّن أخذوا عن أشياخ المدرستين، أم ممّن اقتصروا في الأخذ عن أشياخ إحدى المدرستين، وكانوا يميلون في خصائصهم المنهجيّة إلى مدرسة الكوفة لأنهم امتداد لها، وهو ما سيأتي ذكره في الخصائص المنهجيّة لمذهب بغداد.

3-1-من ظل بصرياً:

3-1-1 الزّجاج(ت311هـ): هو أبو اسحاق إبراهيم بن السّري، كان يعمل بخرط الزّجاج، لزم أبا العباس ثعلباً مدّة، أخذ عنه النّحو واللغة والأدب، ولمّا ورد المبرد بغداد اتّصل به وعزم على ملازمته مقابل ثلاثين درهماً في الشّهر الواحد بعد أن انقطع عن ثعلب حتّى برع في النّحو البصري، و تزعم رئاسة النّحو البصري بعد المبرد، فأصبح مرجعاً لطلاب العلم في النّحو البصري[23]، فضلا عن « تمسكه بالأوضاع البصريّة كالأوضاع التي يرددونها في باب ما لا ينصرف كالعدل وشبه الفعل ومالا ينصرف وتعليله منع الصّرف بوجود علتين فرعيتين إلى غير ذلك»[24]، له اعتراضات على ثعلب وبخاصّة على كتابه الفصيح، وكان شديد التّعصب على أنباه الكوفيين كأبي موسى الحامض مثلاً، الأمر الذي أدى ببعضهم إلى الرّدّ عليه، صنّف كتباً في اللغة والنّحو مثل المعاني في القرآن، وكتاب الفرق بين المؤنث والمذكر، وكتاب الرّد على ثعلب في الفصيح، وشرح أبيات سيبويه، والنّوادر[25].

3-1-2 ابن السّراج(ت316هـ): هو أبو بكر محمّد بن السّري السّراج من تلاميذ المبرد، قرأ عليه كتاب سيبويه، وانتهت إليه الرّئاسة في النّحو بعد المبرد والزّجاج، وقد كان أديباً وشاعراً، يذكر القفطي أنّ ابن السّراج انتزع كتابه الأصول من أبواب كتاب سيبويه، وجعله أصنافاً بالتّقاسيم على لفظ المنطقيين وأما معناه فهو كلّه من كتاب سيبويه، ويعوز المخزومي ابن السّراج إلى المذهب البصري بقوله: «لم يكن أخذ ابن السّراج ببعض الآراء الكوفيّة وحكايته عن الكوفيين بمخرج ابن السّراج عن كونه أحد أتباع المذهب البصري ولم أر أحداً من القائلين بفكرة المذهب الثّالثّ من جعل ابن السّراج واحداً من أتباعه»[26]، له من الكتب كتاب الأصول في النّحو، ضمنه مباحث كتاب سيبويه وأعاد ترتيبها وتبويبها تبويباً حسناً، وكتاب الجمل، وكتاب شرح كتاب سيبويه، والاشتقاق[27].

3-1-3 الزّجاجي(ت337هـ): هو أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق من نهاوند لزم الزّجاج حتّى نُسب إليه، أخذ عنه النّحو كما أخذ عن ابن السّراج والأخفش، انتقل إلى الشّام وجلس في حلقات العلم يعلم النّاس، والزّجاجي بصري لم يختر آراء الكوفيين إلاّ ما استعمله من مصطلحاتهم، ولا يعني اصطناع المصطلحات الكوفيّة-كما يرى

المخزومي- أنْ يكون الزّجاجيّ ممن خلط المذهبين أو من الكوفيين أصلاً، على أنّ الزّجاجي نفسه كان يستعمل عبارة أصحابنا ويريد بها البصريين، فضلاً عن كونه ميالاً إلى الجدل والاعتلال ممّا هو بعيد عن نزعة الكوفيين[28]، وصنّف تصانيفه هناك، ثم انتقل إلى طبريّة وتوفي هناك، له كتب عظيمة مثل أمالي الزّجاجي، والإيضاح في علل النّحو، وكتاب الجمل، وشرح خطبة أدب الكاتب لابن قتيبة[29].

3-1-4 ابن درستويه(ت347هـ): «هو أبو محمّد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي، نشأ بفسا (من بلاد فارس) »[30]، سكن بغداد وأخذ العلم عن ابن قتيبة والمبرد وثعلب، ولكنّه تعصب لمذهب البصريين عصبيّة شديدة، وإنّ جلّ كتبه التي ذكرها ابن النّديم هي إمّا رد على الكوفيين أو انتصار للبصريين مثل كتاب الرّد على الفراء في المعاني، وكتاب الرّد على ثعلب في اختلاف النّحويين، وكتاب النّصرة لسيبويه[31]، له تصانيف عدّة منها الإرشاد، وأسرار النّحو، وشرح الفصيح، وكتاب المذكر والمؤنث والمقصور والممدود[32].

3-1-5-أبو علي الفارسي(ت377هـ): هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، من أب فارسي وأم عربيّة، ولد بفسا بفارس سنة288هـ، انتقل إلى بغداد وأخذ النّحو عن الزّجاج ومبرمان وابن السّراج وابن الخياط، ذاع صيته في النّحو، واتّصل بسيف الدّولة الحمداني في حلب، ونال الحظوى منه، وكانت بينه وبين ابن خالويّة مشاحنات علميّة، كما كانت بينه وبين السّيرافي، صنّفه أصحاب الطّبقات كالزّبيدي وابن النّديم في زمرة البصريين، والشّأن نفسه نجده عند أبي حيان حينما وصف علمه وكان يقر من خلال وصفه بمذهبه البصري، يقول في ذلك: «وأمّا أبو علي فأشد تفرداً بالكتاب وأشد إكباباً عليه وأبعد من كل ما عداه ممّا هو علم الكوفيين»،على أنّ هناك قسمًا من النّحاة المحدثين من جعله من البغداديين المنتمين إلى مذهب الاصطفاء والانتخاب كشوقي ضيف ومحمّد الطّنطاوي، وهو ما دفع ببعض الدّارسين إلى الجزم ببغداديّة أبي علي، محتجين في ذلك بمواقفه المنهجيّة إزاء بعض الأصول النّحويّة كموقفه من السّماع والقياس، ولا نريد ههنا الإطناب في بيان مدى صحة هذا الرّأي لذا سوف نأخذ قولًا واحداً ممّا جعلوه حجّة في إثبات بغداديته، يقول صاحب كتاب المدرسة

البغداديّة: «كان الفارسي ينظر إلى السّماع كمصدر أساسي في النّحو، يأتي في الدّرجة الأولى قبل القياس وغيره من الأصول النّحويّة، وإذا تعارض السّماع والقياس أخذ بالأول؛ لأنّه في رأيه يبطل القياس ويلغيه... »[33]، نعتقد أنّ البصريين كذلك يجعلون السّماع مقدمًا على القياس، فإذا تعارضا أخذوا بالسّماع، وهو أمر يعلمه القاصي والدّاني[34]، على أنّ صاحب هذا الرّأي أقر مسبقاً أنّ أبا علي بغدادي يميل إلى المذهب البصري، كتلميذه ابن جني، وابن جني نفسه عدّ نفسه من البصريين، على الرّغم من أنّه كان ينتخب من آراء البصريين والكوفيين معاً، فلم يبق بدٌّ من عدّ أبي علي من البصريين[35]، ألّف كتباً عدّة وكان طابع التّأليف عنده أنّه ينسب إملاءاته في كلّ بلدة إليها، لذلك سميت بعض كتبه بتلك الأقطار، منها المسائل العسكريّة نسبة إلى عسكر مكرم، والمسائل القصريّة نسبة إلى قصر بن هبيرة، والمسائل الحلبيّة نسبة إلى حلب وهكذا، ومن مؤلفاته أيضاً الإيضاح والتّكملة، والحجة في القراءات السّبع[36].

3-1-6-ابن جني(ت392هـ): هو أبو الفتح عثمان بن جني ينتسب إلى الأزد بالولاء، ولد بالموصل وتعلّم بها، اشتهر بالعفّة والصّدق والجدّ، نبغ ابن جني في التّصريف أكثر من أيّ علم آخر وذلك بسبب الحادثة التي سَخِرَ فيها منه أبو علي الفارسي لمّا سأله عن مسألة في التّصريف، فلزم ابن جني أبا علي الفارسي مدّة أربعين سنة يأخذ عنه[37]، وما قلناه عن أستاذه أبي علي ينطبق عليه، له مصنّفات كثيرة بلغت نحو الخمسين، فكان يؤلف في كلّ علم كتاباً، منها سر صناعة الإعراب في الأصوات والمنصف في التّصريف، واللمع في النّحو، والمحتسب في القراءات، والخصائص في أصول النّحو واللغة وغيرها.

وهم -كما سبق البيان-ممّن اتبعوا منهج البصريين وسماتهم في دراسة النّحو.

3 -2 من ظل كوفياً:

3-2-1-أبو موسى الحامض(ت305هـ): هو سليمان بن محمّد أبو موسى برع في اللغة والنّحو وكان على مذهب الكوفيين في النّحو، وكان سيء الخلق شرس ولهذا لقب بالحامض، وكان بارعاً في اللغة أكثر من النّحو[38]، وكان أبو موسى من ألمع أصحاب ثعلب، وقد لزم مجلس التّدريس بعده، وكان شديد التّعصب على مذهب

البصريين، له من المصنفات كتاب مختصر في النّحو وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الوحوش والنّبات[39].

3-2-2-ابن الأنباري(ت327هـ): هو أبو بكر محمّد بن القاسم بن بشار كان ديِّنا صدوقاً، وكان يميز عن غيره بشدة حفظه، فقد كان يحفظ ثلاثمائة بيت شاهد في القرآن، يُروى أنّه كان واسع الحال وله مال، غير أنّه بخيل، أخذ العلم عن أبيه وعن ثعلب، كان من أعلم النّاس في نحو الكوفيين، ومن المتعصبين لهم، ما جعل بعض البصريين يحاجونه في الأصول الكوفيّة، ما دل على أنّه ذو نزعة كوفيّة[40]، صنّف في النّحو كتاب الكافي والواضح والموضح، ورسالة المشكل في تفسير المشكل في القرآن وكتاب الأضداد[41].

وهؤلاء هم من نهجوا نهج علماء الكوفة الأوائل وتوسعوا في السّماع والقياس والاستشهاد عموماً.

3-3-من خلط المذهبين: وهم النّحويون الذين اعتمدوا أوّلاً على الكوفيين قبل أن يأخذوا عن البصريين، فحدث أنْ خلطوا بين المذهبين، وهم من قصدهم ابن النّديم بقوله ((خلطوا المذهبين)) كابن قتيبة وابن كيسان وابن الخياط وابن شقير وأبي الحسن الأخفش[42]، وسنكتفي بذكر أشهرهم، وهم ابن قتيبة، وابن كيسان والأخفش.

3-3-1-ابن قتيبة(ت276هـ): هو أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري نسب إلى دينور ببلاد فارس لتوليه القضاء بها، ولد في الكوفة وسكن بغداد أخذ عن الزّيادي والسّجستاني وابن راهويه والرّياشي، وكان عالماً في اللغة والأدب والشّعر والفقه، جعله ابن النّديم ممن غلوا في البصريين ولكنه خلط المذهبين، وأنّه حكى عن الكوفيين[43]، على الرّغم من أنّه لم يكن يأخذ عن ثقاتهم كما يروي أبو الطّيب اللغوي[44] ألّف كتباً كثيرة، منها جامع النّحو الكبير والصّغير[45].

3-3-2-ابن كيسان(ت299هـ): هو أبو الحسن محمّد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان، تعلّم على يدي ثعلب والمبرد معاً، وقد أُعجِبَ بالمبرد وبعلمه وراق له أن يغرف من فكره وعلمه؛ لأنّه كان شغوفاً بالثّقافات الجديدة، فحدث أن ألمّ بأسلوب المذهبين في الدّرس النّحوي[46].

ويبدو أنّ ابن كيسان كان يتبع الطّابع البصري، ويظهر ذلك في تأثّره بأساليب المتكلمين والاعتبارات العقليّة، وهو ما يلاحظه المتصفّح لكتابه (المختار في علل النّحو)، الذي فلسف فيه النّحو، ومن الظّنّ الرّاجح أن يكون هذا الكتاب مصدراً نهل منه الزّجاجي في أثناء تأليفه لكتاب الإيضاح في علل النّحو، ونهل منه أيضاً ابن جني في كتابه الخصائص.

وقد سلك بعض الدّارسين مسلكاً آخر في الحكم على ابن كيسان، ومجمل ما قالوا إنّه قد خلط المذهبين، وهو قدوة نحاة بغداد في الدّرس النّحوي البغدادي، له كتب جليلة منها المهذب، وكتاب المسائل على مذهب النّحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون، وكتاب الفاعل والمفعول[47].

3-3-3-الأخفش الصّغير(ت315هـ): هو أبو الحسن علي بن سليمان، أخذ عن ثعلب والمبرد واليزيدي، وهو ثالثّ الأخفشين (الأكبر والأوسط)، وقد انتقص منه العلماء كثيراً، فقد كان يتضجّر إذا سُئل في النّحو، وعليه فقد أقرّ بعض الدّارسين على أنّ الأخفش الصّغير ليس له مذهب يُعتدُّ به إذا كانت الرّوايات التي قيلت عنه ليست إلاّ من وهم الخيال، وأنّه لا يعدو أن يكون راوياً وهذا ما وجدنا منه تأييدًا عند المخزومي إذ يقول: « فخلطه المذهبين إنّما يعني أنّه لم يلتزم بالرّواية عن البصريين وحدهم، ولا عن الكوفيين وحدهم، وكل ما أثبته الزّجاجي له في أماليه من حكايات وروايات إنّما يتعلق برواية الشّعر والأخبار»[48] ، وللأخفش مصنّفات منها كتاب الأنواء، وكتاب التّثنيّة والجمع، وتفسير رسالة سيبويه[49].

من هنا وممّا سبق بيانه وعرضه يبدو واضحاً أنّ هناك ثلاثة اتجاهات نحويّة شكلت ثلاثة مذاهب، وهم البصريون، والكوفيون، ومن لم يجدوا حرجاً في الأخذ عن المذهبين وهم الذين أطلقوا عليهم بالبغداديين، أو أصحاب المدرسة الثّالثّة، أو ما أطلقنا عليهم مذهب الاصطفاء، وهو مذهب لا مناص من ظهوره، إذ من البدهي أن ينشأ جيل يأخذ عن المدرستين كلّما وجدوا مسوغًا للأخذ عن إحداهما، وهي ضرورة فرضتها طبيعة العلم (علم النّحو)، ونعتقد غير جازمين بأنّ هاته الميزة استمرت على هذا الحال عند النّحاة المتأخرين كذلك.

على أنّ الجيل الأوّل الذي نشط الحركة النّحويّة في بغداد قبل الطّبقة الثّالثّة هم الكوفيون الأوائل الذين رحلوا إلى بغداد، كالكسائي والفراء، وهو الرّأي الذي تشبث به مهدي المخزومي[50].

على أنّ منهج من خلطوا المذهبين الدّقيق يكمن في التّوسط بين المذهبين البصري والكوفي، مع جنوحه إلى مذهب الكوفيين أحيانًا، وهو ما سنبينه في المبحث الآتي.

4-منهج المذهب البغدادي في دراسة النّحو: تجدر الإشارة هنا إلى أنّ اعتماد هذا المنهج إنّما يحيل على المذهب النّحوي في بغداد، سواء بنحاته الأوائل وهم من سموا بالكوفيين فيما بعد، الذين نشطوا الحركة النّحويّة من قبلُ، أم أولئك الذين تحرروا من قيود المدرستين ووقفوا وسطًا بينهما، وذلك بغيّة تمثيل النّشاط النّحوي في بغداد والوقوف على جميع محطاته ومراحله.

إنّ مذهب البغداديين السّماعي مذهب وسط بين المذهبين، فلم يميزوا بين لغات العرب، إذ لا يرفضون اية لغة، على أنّهم قد يأخذون بلغة مّا دون رفض الأخرى أو تضعيفها، فقد أخذوا عن بني عقيل، وهم من الأعراب الذين عاشوا في محيط الحواضر[51].

وتذكر إحدى الدّراسات أيضاً أنّ البغداديين كانوا أقرب للكوفيين من غيرهم لأنّهم كانوا يأخذون حتّى بالبيت النّادر، ولو كان مخالفاً للأصول[52]، أمّا القراءات فقد كانت مصدراً مهماً لهم، فلم يرفضوا قراءة صحّ سندها، ولم يُخَطِئوا قارئاً، ولم يطعنوا فيه كما فعل غيرهم، وهذا راجع -فيما يبدو-إلى اعتبارات منها:

أنّ أئمة نحاة الكوفة كانوا من القراء، ومن الذين عنوا بالقرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وهم مِن الذين نشَّطُوا الحركة النّحويّة في بغداد، كالكسائي والفراء وعاصم وحمزة، الذين ترجع قراءاتهم إلى أبي عبد الرّحمن السّلمي، وزر بن حبيش؛

وأمّا القياس عندهم فقد كان موقفهم منه موقفاً يتوسط بين البصريين والكوفيين أيضاً «فقد يقبلون بالمثال الواحد الشّاذ عند البصريين»، ولكن بعد مناقشته مناقشة عقليّة وبعد النّظر فيه وتأمّله، وقد يردونه[53]، وكانوا يقبلون القياس على النّادر الشّاذ أحياناً أو القياس على غير مثال، أو من غير اعتماد على سماع[54]؛

وحقيق بنا الإشارة إلى أنّ البغداديين كانوا يخضعون القياس للنقل، فقد لجأوا إلى تفسير الأصول لتكون وفق الأمثلة المسموعة، وهذا ينمّ عن تقديسهم للسماع والنّقل على العقل، وهم في ذلك أقرب إلى الكوفيين[55]؛

ويمكن أن نُذَيّل تلك الخصائص والسّمات بميزة ميزت هذا المذهب وهي الانتخاب من المذهبين، فكان البغدادي يروي عن المذهبين، ولم يفرّق بين نحوي بصري أو نحوي كوفي، وقد اشتهر في ذلك نحاة من أمثال الزّجاج، ونفطويه، وابن كيسان وابن شقير والأخفش علي بن سليمان، والزّجاجي، وأبي علي الفارسي، وابن جني[56].

5-الخاتمة:

*إنّه وانطلاقًا من التّصورات العلميّة النّظريّة التي سردناها ووقفنا على حقائقها ودواعيها، على حسب ما توفر لدينا من استدلالات وبراهين نقف على جملة من النّتائج التي أفرزتها هاته الدّراسة ومنها:

* أنّه لا يمكن أن ننظر إلى كلّ تجمع لعلماء اشتغلوا بالنّحو وقضاياه على أنّه مدرسة نحويّة لها أصول وأسس منهجيّة، مثل ما حدث في بغداد؛

* تتحدد المدرسة النّحويّة بمقاييس كما بيّن البحث، منها أنّ لها أسسًا تتبعها في أصول البحث، ولها مصطلحاتها الخاصّة بها، ولها مسائل خلافيّة تختلف فيها عن غيرها من المدارس، وهو ما لا نجده في مدرسة بغداد، مما ينفي عنها المدرسيّة؛

* لا تعدّ بغداد مدرسة نحويّة لها خصائص تختلف عن مدرسة البصرة والكوفة بل هي امتداد لمدرسة الكوفة كما بيّن البحث؛

* لقد تغلب المذهب البصري على المذهب الكوفي في بغداد، وأصبح نحو البغاددة نحوا بصرياً؛

* إنّ ما ذهب إليه بعضهم من أنّ لبغداد مدرسة قائمة كمدرسة البصرة وَهْمٌ فلا تعدّو أن تكون حركة علميّة نشطها علماء الكوفة في بغداد؛

*إنّ ما جرّ العلماء المحدثين إلى الاعتقاد بوجود مدرسة بغداديّة، هو تصنيف أصحاب الطّبقات والسّير للنحويين واللغويين، وعدّ بعضهم فريقًا ثالثًا يقف بإزاء البصريين والكوفيين، وممن يمثل أصحاب الطّبقات هو ابن النّديم؛

* نعتقد أنّه لا تصحّ فرضيّة عدّ المذهب البغدادي مدرسة تضاهي مدرستي البصرة والكوفة، وإنّ تسميته أحيانًا بالبغداديين كان يقصد بهم الكوفيين الأوائل، وعليه فإنّ الدّرس الذي ظهر في بغداد آنئذ ما هو إلاّ امتداد للمدرسة الكوفيّة؛

* بيّن البحث أنّ النّحاة ثلاث طبقات، طبقة ذات نزعة بصريّة لا تجد حرجاً في الأخذ عن كوفي، وطبقة كوفيّة لا تجد حرجاً في الأخذ عن بصري، بل منهم من تتلمذ على يد علماء بصريين، وجيل نشأ بعد المبرد وثعلب، يأخذ عن أي فريق شاء من البصريين والكوفيين جميعاً، دون التّستر خلف معتقدات أو أيديولوجيات معينة، وهو أمر طبيعي؛

* تَحدَّدَتْ مذهبيّة بغداد بظهور جيل من النّحاة، تتلمذوا على يدي المبرد وثعلب واختاروا واصْطَفَوا من المدرستين دون هوادة، لذا فهو مذهب –وهو ما اخترنا أن نسمّيه – بهذا الاعتبار، ذهب إليه علماء بغداد، ولا يمثل مدرسة ذات أصول ومنهج مستقلين وقد ابتغى بعضهم أن يُسميَهُ درساً كذلك كما سبقت الإشارة إليه؛

* إن منهج مذهب بغداد منهج وسط، ينتخب من نحو البلدتين (البصرة والكوفة) وأحيانا يجد لنفسه مذهبًا خاصا به؛

* يميل منهج البغداديين إلى إيثار السّماع والنّقل على العقل مثل الكوفيين؛

* لا يمكن أن نعدّ النّحاة الذين انتخبوا من المذهبين بغدادين بالضّرورة كابن جني وأبي علي الفارسي، فقد عدا نفسيهما من البصريين لا من البغداديين.

المصادر والمراجع:

–أبو الطّيب اللغوي، مراتب النّحويين، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها الفجالة القاهرة، (د ط)(دت).

2–أبو حيان التّوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين وأحمد الزّين، مؤسّسة هنداوي، المملكة المتحدة،2017م.

3-أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1 1425هـ/2005م.

4-خديجة الحديثي، المدارس النّحويّة، دار الأمل اربد، الأردن، ط3 1422هـ/2001م.

5-الزّبيدي، طبقات اللغويين والنّحويين، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف القاهرة ط2.

6-الزّجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تح، مازن المبارك، دار العروبة القاهرة.

7-سليم عواريب، علم أصول النّحو ومصطلحاته في كتاب الخصائص لابن جني دار غرناطة الجزائر، ط1، 2010م.

8-شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، دار المعارف، القاهرة، ط11، 2008م.

9-فاضل صالح السّامرائي، ابن جني النّحوي، دار عمار، الأردن.

10-محمّد الطّنطاوي، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، دار المنار، (د ط) 1412هـ-1991م.

11-محمّد خير الحلواني، أصول النّحو العربي، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء المغرب، ط2، 2011م.

12-محمود حسيني، المدرسة البغداديّة في تاريخ النّحو العربي، محمود، دار عمار الأردن.

13-مصطفى عبد العزيز السّنجرجي، المذاهب النّحويّة في ضوء الدّراسات اللغويّة الحديثة الفيصليّة ط1، 1406هـ/1986م. 14-مهدي المخزومي، الدّرس النّحوي في بغداد، دار الرّائد العربي بيروت ط2، 1407/ 1987م.

* مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ط2، 1377هـ/1958م.

15-ابن النّديم، الفهرست، تح رضا تجدد (دط)(د ت).

<u>الإحالات والهوامش:</u>

[1] – ينظر مهدي المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، دار الرّائد العربي بيروت ط2 1407/ 1987م. ص191، وخديجة الحديثي المدارس النّحويّة، دار الأمل اربد، الأردن، ط3 1422ه/2001م ص204.

[2] – مصطفى عبد العزيز السّنجرجي المذاهب النّحويّة في ضوء الدّراسات اللغويّة الحديثة الفيصليّة، ط1، 1406ه/1986م ص72.

[3] – ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص191.

[4] – أحمد أمين ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1، 1425ه/2005م ص471.

[5] – ينظر نفسه، ص471.

[6] –ننبه هنا إلى أننا استعملنا عبارة "المدرسة البغداديّة"، ولم نستعمل عبارة "المذهب البغدادي" لأنّ الخلاف الوارد هو في عدها مدرسة قائمة برأسها.

[7] –ينظر محمّد الطّنطاوي نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، دار المنار، (د ط)،1412ه– 1991م ص111.

[8] –ينظر المرجع نفسه، ص106، 107.

[9] –ينظر محمود حسيني محمود، المدرسة البغداديّة في تاريخ النّحو العربي، دار عمار الأردن، ص49، ومقدّمة الإيضاح في علل النّحو، الزّجاجي، تح، مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة ص (ج).

[10] –ينظر مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1377ه/1958م، ص70.

[11] –المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص10.

[12] –المرجع نفسه، ص10.

[13] –ينظر المخزومي مدرسة الكوفة، ص70.

[14] –ينظر محمود حسيني المدرسة البغداديّة، ص50.

[15]–ينظر المرجع نفسه، ص50، 51.

[16] –ينظر المرجع نفسه، ص53.

[17] –ينظر المرجع نفسه، ص52، 53.

[18] –ينظر فاضل صالح السّامرائي، ابن جني النّحوي، دار عمار، ص247.

[19] –نفسه، ص250.

[20] –ينظر المرجع نفسه، ص251.

[21]–ينظر شوقي ضيف، ص75، 76، والدّرس النّحوي في بغداد، ص58، 59.

[22]–ينظر مدرسة الكوفة، ص379، 382.

[23] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص129 وما بعدها.

[24] _ مهدي المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص133.

[25] –ينظر الحديثي المدارس النّحويّة، ص219.

[26] –المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص135.

[27] –ينظر الطّنطاوي نشأة النّحو، ص105 والحديثي، ص220.

[28] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص135.

[29] –ينظر الطّنطاوي نشأة النّحو، ص105.

[30] –ينظر المرجع نفسه، ص106.

[31] –ينظر ابن النّديم الفهرست تح رضا تجدد (دط)(د ت) ،68، 69.

[32] –ينظر المرجع نفسه ص106، والحديثي المدارس النّحويّة، ص221.

[33] –محمود حسيني المدرسة البغداديّة، ص288.

[34] –ينظر الحلواني، أصول النّحو العربي، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، ط2 2011م، ص103، 104.

[35] – أبو حيان التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين وأحمد الزّين، مؤسّسة هنداوي المملكة المتحدة،2017م، ج1، ص138، وينظر المدرسة البغداديّة،287.

[36] –ينظر الطّنطاوي نشأة النّحو، ص120، وشوقي ضيف المدارس النّحويّة، دار المعارف القاهرة، ط11، 2008م ص255، 256.

[37] –ينظر سليم عواريب، علم أصول النّحو ومصطلحاته في كتاب الخصائص لابن جني دار غرناطة الجزائر، ط1، 2010م ص61، 62، 63.

[38] –ينظر الزّبيدي، طبقات اللغويين والنّحويين، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة ط2، ص152.

[39] –ينظر الحديثي المدارس النّحويّة، ص223.

[40] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص126.

[41] –ينظر الطّنطاوي نشأة النّحو، ص106، والدّرس النّحوي في بغداد، ص125.

[42] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص137.

[43] –ينظر ابن النّديم الفهرست، ص85.

[44] –ينظر أبو الطّيب اللغوي، مراتب النّحويين، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها الفجالة القاهرة، (د ط) (دت). ص85.

[45] –ينظر الطّنطاوي نشأة النّحو، ص106، 107، والحديثي المدارس النّحويّة، ص223.

[46]–ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص138.

[47] –ينظر الطّنطاوي نشاة النّحو، ص107، والمخزومي الدّرس النّحوي في بغداد ص138 139، 140.

[48] – المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد ص152.

[49] –ينظر الحديثي المدارس النّحويّة، ص224، والمخزومي الدّرس النّحوي في بغداد ص153،150.

[50] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص57.

[51] –ينظر محمود حسيني المدرسة البغداديّة، ص131.

[52] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص62.

[53]–ينظر محمود حسيني المدرسة البغداديّة، ص133.

[54] –ينظر المرجع نفسه،134، 136.

[55] –ينظر المخزومي الدّرس النّحوي في بغداد، ص75.

[56] –ينظر محمود حسيني المدرسة البغداديّة، ص146، 147.